مثقفو العراق:
غادرنا ثقافة عبادة الفرد لنصوغ زمناً جديداً

المشهد العراقي له المقدرة على تشكيل نفسه

وابدى الإعلامي كفاح الامين رأيه في كيفية تشكيل المشهد الثقافي العراقي، ومقدرة المثقف العراقي قائلا:

يكاد ان يكون المشهد الثقافي العراقي مميزاً في قدرته على ان يشكل لنفسه تاريخاً لا يشبه الاخرين في صيرورته الجديدة- القديمة حيث توجد ثقافة (under ground) تنمو وتشتعل في دهاليز وانفاق عميقة لتتواصل مع تاريخها القديم والاكيف لنا ان نفهم ان هناك شعراء شباباً يمررون رؤيتهم لعمالقة الشعر العراقي محاولين ان يقفوا قربهم حاملين جمرة الشعر وسلطانه في أكف تبحث عن الخبز والمرأة والسلام، رسامين يأكلون فاكهة المرارة والألم وهم ينظرون بجمال مطلق الى رؤيا للرسم وفوضاه كيف لنا ان نفهم هؤلاء المصورين والمخرجين الذين يتنفسون النار والصدأ ليقدموا لنا اعمالاً تقول انهم ما زالوا احياء كل ذلك يدعوني لأن امد كفي لهم قرباناً للقادم الجميل انهم الرئة التي اتنفس عبرها في خضم الفواجع والجميل الذي انتظره.

برزت بعد ٤/٩ مؤسسات ثقافية تعمل بوطنية

وقال المخرج المسرحي والناقد د/ محمد حسين حبيب، ان المشهد الثقافي شهد بروز مؤسسات ثقافية تعمل بروح وطنية متعالية: في مثل هكذا تحول كبير ناتج عن قصدية مباشرة لإسقاط نظام حكم شامل كان يضم تحت دفتيه وبقوة مؤدلجة كافة المؤسسات الثقافية باختلاف تنوعها المعرفي والثقافي والفني، فإننا حتما سنجد أنفسنا أمام (انفلات) ثقافي شامل تحت يافطات شعارية تحررية.. انفلات ثقافي تشكل نتيجة للانفلات الأكبر الذي تخلخلت خلاله كافة المجالات الحياتية الأخرى على جميع الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية فضلا عن المجال الثقافي وهو ما يعنينا في ورقتنا هذه.

وبعد ان اختلط الحابل بالنابل لاسيما في السنة الأولى من عمر هذا التحول حيث ظاهرة التعددية الحزبية التي حاولت السيطرة أيضا على تعددية ثقافية مختلفة حد الطلاق أحيانا كثيرة ومتفقة (مصالحياً) أحيانا قليلة..حيث شهدنا توسعا إعلاميا وصحفيا وثقافيا لعدد هائل من الصحف اليومية والأسبوعية التي فرحنا لها للوهلة الأولى لكن ما أن خابت الفرحة بغياب كم هائل من هذه الصحف ولم يتبق إلا النوع الراكز والرصين ثقافيا.. فضلا عن تولي بعض الأشخاص ممن كشفوا عن هشاشة ثقافتهم زمام منبر ثقافي مؤسساتي الأمر الذي أسهم في اتساع دائرة الهرج الثقافي والفني..

كما برزت الى الساحة الثقافية ظاهرة التشكي الثقافي المعلن والظهور بمظهر المارد الأسطوري المدافع عن ثقافة عراقية كانت مسحوقة ومبرمجة، فراح البعض من هؤلاء يسطر لنا الكثير من الأكاذيب والتلفيقات القصصية مع الأسف بهدف تحقيق أهداف ماربية شخصية ليس إلا.. إضافة الى ما أبدوه من تلون فكري سياسي ثقافي غير مسكوت عنه.. وغالبية هؤلاء من مثقفي الخارج او كما يمكن تسميتهم بالمغتربين حيث نعرف الكثير منهم بسطحية إنتاجه الإبداعي على العكس تماما من بعض الأسماء العراقية الراكزة ثقافيا قبل وبعد التاسع من نيسان سواء من مثقفي الخارج او من مثقفي الداخل وهؤلاء واعني مثقفي الداخل - وعدداً محدوداً جدا من مثقفي الخارج الذين لم ينقطعوا عن الداخل - هم أكثر من غيرهم دراية بالثقافة الأجدى لعراقهم لأنهم معجونون بمعاناة ناسهم وأهلهم وبالتالي هم وحدهم القادرون على صياغة ثقافة الآن والمستقبل.

إلا أننا من جانب آخر نلحظ وبوضوح ظهور أشخاص بمؤسساتهم الثقافية ذات السمعة والخبرة الطويلة، ظهورا وطنيا ثقافيا جادا كشف عمليا عن مسعاهم النبيل فعلا والمتمثل بتأسيس وترصين الجانب الثقافي الحقيقي للبلد.. فالإبداع الحقيقي لا يختلف عليه احد في أي زمان او مكان، وتحت ظل هذا النظام او ذاك.. لكن ان تصاغ الأمور بعيدا عن هذا الذي لا يختلف عليه احد، فتلك فجوة ادراكية مقيتة مرهونة بنتائج فاشلة..

ومن المهم الإشارة هنا الى ظاهرة احتفاء رجل السياسة بالثقافة.. حيث ظل هذا الاحتفاء الثقافي في هذا المؤتمر او ذاك المهرجان ذا بعد سياسي، لا ثقافي، وهذه فجوة أخرى تتحملها يافطة (برعاية....) ذات الصبغة الإعلامية حسب، لا الصبغة الثقافية التي ينبغي ان يتواصل معها المسؤول الثقافي قبل السياسي وبهذا نكون إزاء الخطاب الثقافي العراقي التي نحلم ونريد.. لان الرعاية جاءت ثقافية فعلا لا سياسية إعلامية مؤقتة تنتهي بمغادرة كاميرات الفضائيات بعد افتتاح الحفل.

وبودنا الإشارة أيضا الى ظاهرة طباعة الكتب الثقافية على الحساب الخاص التي استفحلت بعد التاسع من نيسان كثيرا دون عين الرقيب الفاحصة بمسؤولية موضوعية محايدة.. فالأمر هنا مرتبط بثقافة البلد ومستقبله الثقافي.. بل إننا شهدنا في بعض المؤسسات الثقافية الرسمية استسهالاً في إنتاج المطبوع الثقافي من شانه ان يرسخ ثقافة هشة غير فاعلة وتنتهي سريعا.

متفائلون بتخلصنا من الفكرة الواحدة

وكان الشاعر عبد الخالق كيطان متفائلاً بالذي جرى، وعد تفاءله بسبب الخلاص من عقدة الفكرة الواحدة فقال: لم يكن حدث التاسع من نيسان حدثاً عادياً في التاريخ العراقي المعاصر، وبالتالي فإن آثاره، المنظورة منها وغير المنظورة على ثقافتنا الوطنية لا يمكن حصرها.. ومع ذلك يمكننا القول في هذه العجالة أن من أبرز تلك الآثار هو التخلي عن ثقافة عبادة الفرد التي أبتليت بها ثقافتنا الوطنية في العقود السابقة، بالرغم من أن ثقافة عبادة الفرد ليست أصيلة في سياق الثقافة العراقية، كذلك سقوط مفهوم المركز في الثقافة العراقية، حيث تشهد هذه الثقافة اليوم في مختلف المدن العراقية حراكاً نشيطاً تدعمه منظمات مدنية وجهود شخصية مختلفة..ومن الآثار الكبرى لحدث التاسع من نيسان أيضاً محاولة الثقافة العراقية اجتراح صياغة جديدة للعلاقة بين المثقف والسلطة من جهة والمثقف والمواطن من جهة ثانية، فلقد شهدت مثل هذه العلاقات سوء فهم مزمن دائماً ولقد آن لهذه الاشكالية أن تحل..

أننا اليوم بصدد تأسيس الكثير من البنى العراقية، وليست الثقافة ببعيدة عن تلك البنى، بمعنى أننا مدعوون اليوم للإفادة من إخفاقات الماضي بمجملها والخروج بمشروع وطني للثقافة العراقية يخلصها من الكثير مما علق بها من أمراض وعلل، سواء أجاءت تلك العلل عن طريق هيمنة الفكر الديكتاتوري في العقود الأخيرة أو عن طريق ثقافة عبادة الأشخاص التي للأسف الشديد يبدو أنها متأصلة في نفس الفرد العراقي فهي دائماً ما تبحث عن رمز/ سياسي، ديني، مناطقي ألخ لعبادته واعتباره بديلاً أو مخلصاً، وما لم يتحرر الفرد العراقي من مثل هذه الأمراض فإن انعكاسها المباشر على النتاج الثقافي يبدو أمراً لا مناص منه..

لقد شهدنا في السنوات التالية لسقوط الديكتاتورية ظهور تيارات ثقافية جديدة ومختلفة، وكذلك ظواهر تؤشر بمجملها إدانة الثقافة التابعة القانعة ورموزها وتعلي من شأن الثقافة البيضاء، إذا جاز التعبير، تلك التي تشيد بدور الانسان الحضاري ورغبته في التحرر.. ولقد كان من نتاج ذلك أن وجد العديد من المثقفين العراقيين من الذين كانوا محسوبين على ثقافة الديكتاتورية ونظمها الإعلامية أنفسهم في المنفى الجديد المتشكل الآن، وكنا نعتقد أن حدث التغيير الجبار كان سيوفر لنا فرصة مكاشفات ثقافية نحن أحوج ما نكون إليها لتجاوز الماضي والشروع بإعادة إعمار بنى الثقافة التحتية لا تأسيس منفى جديد وكأن قدر الثقافة العراقية أن تعيش بين ضفتي النفي والوطن..

لقد تكرس مفهوم التعددية الثقافية في العراق من خلال العديد من التمظهرات التي لا يمكن إغفالها، ومن ذلك جهود ما أصبح يطلق عليها منظمات المجتمع المدني في العراق.. وهي منظمات تجد آثارها التي لا تغفلها العين في العديد من مناطق البلاد، حتى الشاسعة والبعيدة منها، ويبدو نتاج هذه المنظمات والعاملين فيها، وهو نشاط بعيد تماماً عن أي سلطة رقابية للدولة، ونقصد بالتحديد الرقابة الفكرية، ما يمنح عمل تلك المنظمات والشخصيات قدراً رائعاً من الحرية.. حرية هي بصدد أن تكون مثالاً لأهمية العمل غير المؤسساتي في الثقافة العراقية.. وإذا ما ذهبنا أبعد في تحليل دور المنظمات غير الحكومية في العراق فسنصل حتماً إلى الجهد الكبير الذي تبديه مؤسسة المدى للثقافة والفنون والإعلام في العراق، على سبيل المثال لا الحصر، وهي مؤسسة تقيم العديد من الفعاليات الثقافية الكبرى داخل العراق ومنها على سبيل المثال لا الحصر: أسبوع المدى الثقافي، أيام المدى، ومعرض الكتاب ألخ.. وبالعودة الى استذكار مرحلة ما قبل التاسع من نيسان سنجد أن الجهد الثقافي كان على الدوام يمثل حصة الدولة ومؤسساتها ومن الإستحالة الخروج على ذلك فما بالك بالخروج على أفكار الدولة؟؟

إن تعدد الأقنية الإعلامية في العراق اليوم يعد ولا شك من ثمار حرية ما بعد الديكتاتورية، حيث صار الوصول إلى الخبر العراقي سهلاً وممكناً بعد أن كان محاطاً بالعشرات من الأسوار والألغام ما ضيق من آفاق الفرد العراقي وتطلعه للمعرفة، هكذا أفاد المثقف العراقي من ثورة تقنية المعلومات التي شملت العراق أخيراً فأصبح جزءاً من القرية العالمية بعد أن كان خارجها..

على أن من أبرز الآثار السلبية التي أثرت الى الثقافة العراقية في هذه السنوات هو شيوع الثقافة الدينية، أو تلك المتعكزة عليها، وهي قضية معروف تماماً مبرر وجودها، وصلاحيتها، وفعاليتها.. ولعلنا نأمل في ان يكيف المثقف العراقي الحر ذلك لصالح الثقافة الوطنية بأن يخرجها من الطبيعة المنبرية لصالح التأملية، ولقد شهد العالم على الدوام ما يشبه تلك المحاولة الجادة والرصينة للإرادة من العمق الروحي للدين في إنضاج ثقافة متسامحة وحميمة وإنسانية.

وتبدو مشكلة الفنون الجماعية في العراق المشكلة الأبرز في عراق ما بعد الديكتاتورية وذلك بسبب من حاجة تلك الفنون للإمكانيات والقاعات وأمكنة العرض والتدريب مما هو غير متوفر اليوم بسبب جملة من الأمور لعل في مقدمتها الظرف الأمني العراقي غير المستقر.

نستطيع القول، أخيراً، ان مبعث تفاؤلنا المنبثق من تحت ركام الديكتاتورية يعود إلى جملة واحدة فقط تتلخص بالخلاص من عقدة الفكرة الواحدة التي هيمنت على ثقافتنا الوطنية لعقود وعقود..

٩ نيسان / ٢٠٠٣ اعلان لنهاية الاستبداد

وعدّ الباحث والكاتب احمد الناجي تأريخ تهاوي التمثال في ساحة الفردوس، اعلاناً لنهاية الاستبداد والتخلص من كابوس جثم على نفوسنا اذ قال: مثلت رؤية التمثال البرونزي الضخم، وهو يتهاوى في ساحة الفردوس يوم ٩ نيسان ٢٠٠٣، نهاية حقبة الاستبداد، وتجلت في ذلك المشهد الرمزي بداية الانعتاق من براثن القهر والاستبداد والتخلص من كابوس جثم ردحاً من الزمن على الرقاب، عاث في البلد فساداً وتعسفاً، قتلاً وتشريداً، تلك هي نهاية المستبد والاستبداد البديهية، لقد كان ذلك المنظر قبل أيام معدودة من حصوله يعد ضرباً من الخيال وحلماً خرافياً، حاذر العراقي المرتهن وسط الوطن/ القفص التفكير به مع الآخرين، ولكن شاء القدر أن يستحيل الحلم المدثر بين ليلة وضحاها الى حقيقة بفعل العامل الخارجي طالما تمنى العراقيون أن يكون على أيديهم، ولكن...

حمل المشهد نوعاً من الفنتازيا النادرة التي تأسر المشاعر كلها في آن واحد، وتضعها في اتون المضحك المبكي، أية سخرية تلك التي حملت مفارقة لا تحتمل التوأمة، المقاربة بين الحرية والاحتلال، أي تمازج ذلك الذي وضع الذات الهائمة بين حزمة المشاعر المتناقضة والعصية على الفهم والإدراك، سعادة غامرة تمتزج مع غصة مؤرقة لا ينجدك تجاوزها كل ما تقاطر من أحاسيس الفرح التي انهالت في تلك اللحظة بغير حساب.

كان معظم العراقيين يدركون بأنهم ضحية مواجهة غير متكافئة، ولم يأت الموقف التلقائي الرافض للحرب العدوانية على بلدهم حباً بالدكتاتورية، بل لأنهم يدركون من خلال تجارب مضت أهوال وكوارث الحروب ونتائج رعونة من خاض غمار المنازلات العبثية، المتراجع دوما في الوقت الضائع بعد أول لذعة حمى من أوارها المشتعل دون الاكتراث لحجم التنازلات ولو كانت بأفدح الأثمان ما دام ظل هو مسمراً على كرسيه الملعون، تلك هي حدود نصره المزعوم، والعراقيون لا غيرهم في نهاية المطاف سيدفعون ثمن طيش النزوات.

هولت سرعة انهيار النظام من حجم المفاجأة وعمقت حالة الذهول التي اعترت العالم أجمع بمن فيهم المتابعون من محللين سياسيين وإعلاميين ومثقفين، ونزلت كالصاعقة على بعض الموهمين ممن لم يعرفوا شيئاً عن الهوة الشاسعة بين الشعب والنظام، ومدى عزلته التي أحيطت بهالة الأكاذيب التي زينتها أبواق الإعلام المدفوعة الثمن، فناموا في رغد الأوهام على تهريجات، يحلمون بالنصر المزعوم ولو في المنازلة على مشارف أسوار العاصمة.

نعم سقط النظام واحتلت بغداد دون مقاومة مؤثرة، ولكننا نحن غالبية العراقيين لم نشعر بالهزيمة، بل ونحسب أنفسنا ضحية صناعها، فقد كان الثمن غالياً، ونحن المعنيون بسداده اليوم أو مستقبلا، تلك هي الحقيقة التي لم يستطع أحد من غير العراقيين إدراكها، ولن يستطع مادامت مكابدات الحروب وآثارها المريرة لم تطله، وسياط الاستبداد لم تصل الى جسده، ولم يأكل الخبز ممزوجاً بالرمل في زمن الحصار القاسي.

نعم ذلك ما يعمق مأساتنا ويجعل الإجابة على تساؤلاتنا رهينة في حدود النظرة القاصرة، كيف يمكن للآخرين أن يفهموا حقيقة الأحداث؟ وهي مغيبة عنهم عبر ماكنة الأعلام التي تدور برحى تضليل وتزييف الحقائق، زينت بالأمس القريب وجه نظام ديكتاتوري من أبشع الأنظمة التي عرفتها البشرية، مقابل أن تقضم ما يغدق عليها السلطان من عطايا وهبات تنوعت وصارت براميل نفط أخاذة للألباب، دفعها الشعب العراقي معاناة ومآسي في أقسى ظروف سنوات الحصار المريرة.

إزاء مكر التاريخ... لم يعد هناك بد سوى اجترار الآلام ومكابدة الزمن المر، فراح العراقيون ممن قلبهم على العراق وسط الأدخنة والخراب، يحتضنون الوطن المدمى، يشلون جراحاتهم، ويضمدون ما يمكنهم تضميده، صابرين على فقدان الأمن والأمان، عل وعسى تنجلي الغمة ولو بعد حين، يحدوهم الأمل بأعمار البلد، يمنون النفس في أجواء الحرية واستعادة قدرة التفكير، إنهاء الاحتلال تلك المكرمة السخية وآخر التركات التي شرعنتها الأمم المتحدة لاحقاً والتي صار يزايد بها الكثيرون من صناعها، ممن صمتوا وساعدوا وباركوا، أولئك الذين لا يعنيهم وقف نزيف الدم المتدفق من شعب لا يريد أن يبقى أسيراً للمستبد تحت طائلة الاستبداد الى الأبد.